

مدارس التعليم القرآني في الجنوب الجزائري- ولاية ادرار نموذجاً

د/ محمد جرادي/جامعة أحمد دراية / أدرار

djerradimed@gmail.com

الملخص:

التعليم القرآني واحد من أشهر الوظائف في المجتمعات المسلمة، تعددت مقاصد التعليم القرآني بين طلب الفضيلة وإثبات الذات، والمحافظة على اللغة والهوية، وغيرها. اختلفت تجارب التعليم القرآني بين البلدان الإسلامية، بل تنوعت في البلد الواحد، وإذا اتفقت في موضوعها فإن المناهج والوسائل والنتائج متباينة. والمجتمع الجزائري ما فتى ينظر بكثير من التقدير للتعليم القرآني ويُسخر لخدمته شتى الوسائل. وقد عرف التعليم القرآني في مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830، ومرحلة ما بعد الاستقلال 1962 ازدهاراً في المناطق الجنوبية خاصة (الصحراء)، هذا وتعد ولاية ادرار واحدة من ولايات الجنوب الجزائري رائدة في التعليم القرآني بالنظر لثلاث مؤشرات:

1- الانتشار الكثيف للمدارس القرآنية، واستقطابها للمدرسين حتى من دول الجوار الإفريقي.

2- وفرة في معلمي القرآن نظاميين أو أحرارا.

3- التعداد المعتبر للمتخرجين من الحفظة.

وقصد تلمس طريق النجاح وتثمين نتائجه، لاسيما في القضايا الملحة على الجميع:

أ- تاريخ المدرسة القرآنية في ولاية ادرار.

ب- دور البيئة الحاضنة في نجاح أو فشل التعليم القرآني.

ج- المدرسة القرآنية والمدرسة النظامية: إئتلاف أم اختلاف؟

د- مستقبل النمط التقليدي للتعليم القرآني في ظل المناهج والتقنيات الحديثة.

ه- آفاق التعليم القرآني في ظل تنامي عزوف الشباب.

هذه الإشكالات وغيرها يحاول البحث أن يُجيب عنها انطلاقاً من تجربة المدرسة القرآنية في الوسط الجنوبي الصحراوي الجزائري، وتحديداً في ولاية أدرار.

Abstract

Teaching Qur'an is one of the most famous jobs and professions occupations in Muslim societies. The concern for Quranic teaching was not for the seek of virtue, but for many purposes, among which self-affirmation, preserving language, identity and others.

The experiences of Quranic education differ in the Muslim countries, moreover, we can find varied experiences in the same country. Even If they agreed on the subject, the methods, the means and results are different. Algerian society has always been very appreciative of Quranic education and has used various means to serve it. The Department of Adrar, one of the southern departments in the south of Algeria, is a pioneer in Quranic education with regard to three indicators:

- 1 - the widespread of Qur'anic schools gathering not only local learners but also from the neighbouring African countries.
- 2 - Abundance in the teachers of the Qur'an both under the state regime and private.

3 – the important numbers of Qur'an custodian

تاريخ المدرسة القرآنية بولاية ادرار:

إن أول صعوبات البحث في تاريخ المدارس القرآنية في الجنوب الجزائري عموماً وولاية ادرار خصوصاً غياب دراسات علمية، هذا الشح في المادة المصدرية يضطرنا للتعويل في هذا البحث على ثلاث أدوات:

- الملاحظة المباشرة لواقع المدرسة القرآنية، بحكم المعاشة لفترة تمتد لبضع وأربعين سنة.

- بعض التقارير الرسمية الصادرة عن الإدارة المشرفة عن التعليم القرآني ممثلة في مديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية ادرار.

- تقرير حول نشاط التعليم القرآني في ولاية ادرار، أعدته إحدى لجان المجلس الشعبي الولائي (الهيئة المحلية المنتخبة) سنة 2010.

يمكن أن نميز في تاريخ مدارس التعليم القرآني في الصحراء الجزائرية بين ثلاثة أدوار:

الدور الأول- دور النشأة: فترة ما قبل القرن 10 الهجري:

لم تجزم كتابات المؤرخين بالمرحلة التي عرفت استقرار الإنسان في صحراء الجزائر عموماً، وعلى ضفاف وادي الساورة خصوصاً، لكن كلمة المؤرخين تتفق على أن أصل الساكنة أمازيغ، ومن نقل الاتفاق محمد بن عبد الكريم التمنيطي في قوله: (قد اتفق المؤرخون على أن أهل القطر التواقي قبل الإسلام عجم لا عربية فيه)¹، وأن العنصر العربي طارئ على الإقليم بدخول قبائل بني معقل في القرن السادس الهجري حسب ما صححه ابن خلدون².

دخل الإسلام لهذه البلاد قديماً من انتهاء حركة الفتح الإسلامي في الغرب الإسلامي مع مطلع القرن الهجري الثاني. غير أن المادة التاريخية المتاحة لا تفيد شيئاً عن النشاط الإنساني عامة والحركة العلمية خاصة قبل القرن السادس الهجري، الذي بدأ يُسجَّل فيه حضور بعض الشخصيات العلمية التي وفدت إلى الأقاليم الجنوبية من جهات مختلفة من الغرب الإسلامي، مثل الشريف سليمان بن علي الذي كان في مقدمة الواصلين منتصف القرن الهجري السادس، وعيسى بن محمد البطوي الذي نزل تمنطيط سنة 714هـ، ونزلها أيضاً أبو يحيى بن محمد المنياري³ سنة 815هـ، وبعده يحيى بن يدير التدلسي⁴ سنة 845هـ.

لقد مثل استيطان أولئك العلماء بداية المسيرة التعليمية، باختطاطهم المؤسسات التعليمية الأولى (الزوايا)، والتي كان التعليم القرآني شغلها الأكبر. ووفقاً لما أشير إليه سلفاً عن أصل التركيبة السكانية فإن النشاط التعليمي والقرآني منه لم يكن بالقوي لغلبة العجمة في الإقليم.

الدور الثاني - دور النمو: من القرن 10هـ إلى عام 1900م.

تفاعل العنصر العربي الطارئ على الإقليم مع المكون البشري للإقليم واندجما سريعاً، فلم يمض من الوقت إلا يسيراً حتى صارت الغلبة للقبائل العربية وصار لسانها هو الغالب في لغة الساكنة.

كان هذا التحول اللغوي دافعاً قوياً للنشاط التعليمي، وانضاف إليه عامل آخر هو رحلات بعض طلبة العلم إلى الحواضر العلمية القريبة كتلمسان وبجاية من الجزائر، أو سجلماسة وفاس بالمغرب الأقصى، وحتى البعيدة كالقاهرة. (فكان من نتاج تلك الرحلات وضع اللبنة الأولى لأمهات المدارس والزوايا التعليمية بالإقليم، فنشأ إثر رحلة

الشيخ عبد الكريم بن أبي محمد المدرسة البكرية بتمنطيط، والتي ازدهرت على يد ابنه القاضي البكري، وأحيا عمر بن عبد القادر التتلافي بعد رحلته مدرسة جده أحمد بن يوسف (ت1058هـ) بتتلان، وأنشأ محمد العالم الزجلوي مدرسته بزجلو بعد عودته من المغرب، وأنشأ الكتتيون الرحالة مدرستهم بالبلد الذي يُنسب لهم (زاوية كنتة). هذه المدارس "الأمهات" كونت من الأعلام والشيخوخ ما هيأ لقيام مدارس "أساسية" في مدن كأدرار وملوكة وأولف وسالي⁵. كان عدد تلك المدارس محدوداً، ارتبط وجودها بمشيخة علمية.

أما عن تركيبة الزوايا فغالباً ما كانت تتشكل الزاوية من ثلاثة مرافق رئيسة هي المسجد الجامع، والمدرسة وهي عبارة عن حجرة أو فناء أو مجرد رواق. بسيطة في بنائها، لا تتطلب أي نوع من التجهيز، فراشها تراب وسقفها من جذوع النخل. وثالث مرافقها محل إقامة الطلاب وإيوائهم.

هذه المؤسسات التعليمية رغم تاريخها الطويل فإنها لم تشهد تطورات ملموسة من حيث بنيتها التحتية⁶. ظلت الأوقاف وكانت وفيرة، أكثرها عقارات فلاحية، تمثل مصدر التمويل الرئيس للعملية التعليمية⁷. بما يُوفر احتياجات الشيخوخ، ونفقات التلاميذ المقيمين الذين يفدون إليها من الجهات البعيدة⁸.

ونظراً لارتفاع الكفاءة العلمية لشيخوخ تلك المدارس "الأمهات" أو "الأساسية" وتراكم الخبرة التعليمية، بدأ تطور على المحتوى التعليمي، فاتسعت مع تحفيظ القرآن الكريم لمقررات تعليمية في بعض العلوم كرسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل في الفقه، وتحفة الحكام في القضاء، ومقدمة ابن آجروم وألفية ابن مالك في النحو وابن سعيد في الفلك وغيرها.

هذا التطور للمؤسسة التعليمية في الجنوب الجزائري في هذا الدور لا يختلف عن تطور المؤسسة التعليمية في تاريخنا الإسلامي، والذي يصفه السباعي بقوله: (كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا، فلم يكن مكان عبادة فحسب، بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلوم المختلفة، ثم أقيم بجانب المسجد الكتاب، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة.

ثم قامت المدرسة بجانب الكتاب والمسجد، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر. كان التعليم فيها مجانياً ولمختلف الطبقات، فلم يكن يدفع الطلاب في دراستهم الثانوية والعالية رسماً ما من رسوم الدراسة التي يدفعها طلابنا اليوم. وكانت الدراسة فيها قسمين: قسماً داخلياً للغرباء، وقسماً خارجياً لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه⁹.

الدور الثالث_ التوسع والانتشار: من سنة 1900 إلى يومنا.

هذا الدور نقسمه إلى ثلاثة مراحل.

المرحلة الأولى: فترة الوجود الاستعماري (1900-1962).

خضعت الجزائر للاحتلال الفرنسي في 05 جويلية 1830، غير أن سيطرة المحتل على الشريط الساحلي والمناطق الشمالية ذات الكثافة السكانية المرتفعة والأراضي الزراعية الخصبة كانت سريعة، أما توغله في مناطق الصحراء¹⁰ فقد كان متأخراً.

لقد كانت سياسة المحتل الفرنسي في شقها الثقافي تقوم على تجهيل الشعوب التي يُخضعها لسيطرته ومحاربة التعليم الديني، وإبدال المنظومة التعليمية التي كانت أهلية بمنظومة حكومية يوجهها لخدمة أطماعه التوسعية، وقد دفعه ذلك للتضييق على المدارس

الأهلية التي كانت تُدرس القرآن والعربية واضطهاد أصحابها، وكان من نتائج سياسته تقلص عدد المؤسسات التعليمية في سائر البلاد التي يستولي عليها.

استفاد المحتل الفرنسي من تجاربه في المناطق الشمالية من الجزائر فلم يستفز المنشغلين بالتعليم¹¹، وهو ما سمح بتزايد أعداد المدارس. هذه المدارس هي مدارس ثانوية أنشأها خريجو المدارس الأساسية في بلداتهم وقراهم بعد عودتهم إليها.

المرحلة الثانية: ما بعد استقلال الجزائر (1962 – 1980).

تُشكل هذه الفترة أخصب مراحل نشاط التعليم القرآني، وآية ذلك الانتشار الواسع للمدارس، فلم تعد تنحصر في جهات قليلة، حيث عم وجودها المدن والأرياف والقرى¹²، حتى تعددت المدارس في القرية الواحدة.

تعدى أثر مخرجات المدارس القرآنية في هذه المرحلة التعليم الديني، فنظراً لقلّة الإطارات التعليمية استعانت وزارة التربية بخريجي المدارس القرآنية في تأطير التعليم النظامي غداة الاستقلال.

خصائص المدرسة القرآنية في هذه المرحلة:

1- مدرسة حرة. أو أهلية لا تستند في نشأتها إلى قرار من هيئة رسمية، ولا تتبع جهة حكومية.



صورة داخلية لمدرسة قرآنية

2- مدرسة بسيطة: بل تشتد بساطتها إلى درجة البدائية، وملامح هذه البساطة متعددة:

- بساطة في المبنى، (كما يظهر في الصورة المقابلة).
- بساطة الوسائل التعليمية: فالمداد يصنع من صوف الغنم،

والأقلام تنجر من أعواد القصب، وينقل التلميذ على اللوح ما يكتبه له المعلم على الرمل.

3- مجانية. لا يُكلف التعليم القرآني منتسبيه أو عوائلهم شيئاً، حتى المدارس الداخلية التي تعتمد النظام الإقامي، والتي توفر الإقامة والإعاشة لتلاميذها، لأن الأوقاف والهبات تكفلت بالنفقات، وهو ما يُسهل الانتساب إليه من جميع الفئات الاجتماعية.

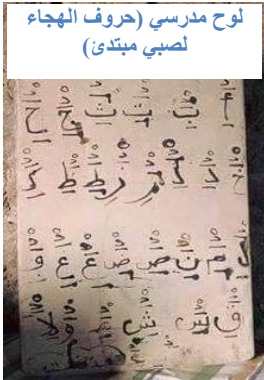
4- قرآنية: رغم أن المدرسة القرآنية كانت تتيح لطلابها بعض العلوم القليلة الأخرى، كالفقه والعربية، إلا أن تلقين تلك العلوم لم يكن بمعزل عن تحفيظ القرآن الكريم، فلم يكن الشيوخ يُتيحون لطلبتهم ولوج حلقات الفقه¹³ أو النحو إلا لمن أتم حفظ القرآن الكريم، وكان دخول تلك الحلقات اختيارياً. وهكذا حافظت المدرسة على أحادية البرنامج التعليمي. وكانت هذه طريقة أهل المغرب حسب ما أورده ابن خلدون في المقدمة بقوله: (فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدرسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر)¹⁴.

5- إلزامية التعليم القرآني: كان التعليم القرآني في المجتمع الجنوبي إلزامياً، غير أن هذه الإلزامية لم تكن بفعل قانون أصدرته أو تحرص على تنفيذه سلطة، وإنما كانت وليدة عرف اجتماعي راسخ. فلم يكن أمام الطفل من بد إذا استقام نطقه إلا الذهاب للكُتَّاب، وإن لم يذهب استجابة لرغبة والده أو نداء المعلم ذهب مضطراً لأنه لن يجد في القرية من يلهو معه في أوقات المدرسة.

ضمنت هذه الإلزامية "العرفية" حدوداً محترمة في الحفظ والمعرفة القرآنية، فحتى التلاميذ الذين خانتهم قواهم الذهنية أو حالت ظروفهم الاجتماعية عن مواصلة التمدرس لم يقلَّ تحصيلهم عن أجزاء من القرآن الكريم أقلها الجزأين الأخيرين منه.

6- مفتوحة: خلافاً للتعليم الحديث الذي تطبقه المدارس النظامية في العالم والذي يوزع على مراحل وأطوار، يُحدد فيه عمر كل مرحلة، فإن المدرسة القرآنية كانت ولا تزال تُحافظ على النظام المفتوح الذي لا يُشترط فيه سن المتمدرس ولا يُحدد فيه عمر المرحلة التعليمية، وكان يسمح هذا بالتحاق حتى كبار السن الذين فاتهم التعليم في الصبي، يقول في ذلك الشيخ محمد باي: (فأسسوا المدارس وابتكروا لها نظاماً باهراً جعلها تُعطي الثمرة المرجوة منها في أمد قليل، ولقد ساعدها على أداء مهمتها عدم تحديد سن الدخول، فهي لا تعتبر ذلك بل تستقبل كل من يرتادها من الطلبة ابتداء من سن الرابعة إلى أن يبلغ الثمانين سنة والباب مفتوح، وهكذا لو انقطع عن الدراسة وأراد مواصلتها لا يُمنع)¹⁵. أما تسريح التلميذ فيخضع لرغبته أو تحصيله ما عند شيخه.

7- طول الفترة التعليمية: يملء التعليم القرآني على التلميذ الشطر الأطول من يومه، فموعد التحاق التلميذ بالمدرسة باكراً من صلاة الصبح، ويستمر فيها إلى قبيل الزوال، ثم يعود إليها مع صلاة الظهر¹⁶ إلى ما بعد العصر، ثم يعود إليها بين المغرب والعشاء¹⁷.



على أن هذه الفترات النشاطات فيها مختلفة، ففي حين تُخصّص الفترة الصباحية الباكرة للمراجعة الأخيرة للوح¹⁸ ثم محوه وكتابته ثم قراءته. فإن نشاط الفترة المسائية قراءة اللوح إلى حد الحفظ وعرضه على الشيخ.

أما الفترة الليلية فمحتواها ثابت للتكرار الجماعي للجزأين

الأخيرين من القرآن¹⁹، وربما أضيف إليه قراءة جماعية لبعض متون الفقه أو العقيدة²⁰.

ومع أن يومي الخميس والجمعة تُعطل فيهما الدراسة، فجملة القول في شأن الفترة اليومية للتعليم القرآني أنها طويلة، لا تترك للتلميذ فسحة لممارسة نشاط آخر. والمدرسة لا تضع سقفاً زمنياً ينتهي إليه المتعلمون، على أنه في جميع الأحوال لا ينزل متوسط الفترة التعليمية عن ثلاث سنوات.

المرحلة الثالثة: التطور الحديث بداية من 1980.

مطلع ثمانينيات القرن الماضي شكل منعطفاً في مسيرة التعليم القرآني في الجنوب الجزائري وتحديداً في ولاية أدرار، لما استجد من متغيرات تركت آثارها على المدرسة القرآنية المعاصرة، وأهم تلك المتغيرات تتمثل في أمرين:

الأول - تنظيم وظيفية التعليم القرآني.

ظل التعليم القرآني نشاطاً حراً لقرون، يُمارسه من تأهل له بحفظ القرآن، ورغم أنه كان النشاط الرئيس لأهله، غير أنه لم يكن يُمثل لهم مصدر رزق أو ثراء، وظل معاشهم يعتمد على ما يملكون من عقارات فلاحية²¹، يخدمونها بأنفسهم، وغالباً ما يوكلون خدمتها لغيرهم بعقود شراكة.

وإتماماً لهيكله المرافق العامة في الدولة في مرحلة الاستقلال، جاء إدماج كل الأئمة والمدرسين في الوظيفة الحكومية. لم يتحمس غداة الاستقلال كثير من المعلمين لهذا الاندماج، تورعاً مما ورد في أخذ الأجرة على تعليم القرآن، (فقد اختلف العلماء فيه، فحكى الإمام أبو سليمان الخطابي منع أخذ الأجرة عليه عن جماعة من العلماء، منهم الزهري وأبو حنيفة، وعن جماعة أنه يجوز إذا لم يشطره، وهو قول الحسن البصري

والشعبي وابن سيرين. وذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها، إذا شارطه واستأجره إجارة صحيحة²².

وما إن وصلت سنة 1981 حتى قبل أكثر المدرسين بهذا الاندماج، وانخرطوا في الوظيفة العامة، وأجريت لهم الرواتب كسائر موظفي الدولة. وعُد هذا اعتراف من الدولة بفضل القرآن الكريم وأهله في حفظ الشخصية الإسلامية الجزائرية إبان حرب التحرير²³، وقد كان هذا واحداً من أهم العوامل التي تحافظ إلى اليوم على مهنة التعليم القرآني، في ظل انحسار عوائد الأوقاف التعليمية واندثار أو ضياع كثير منها.

الثاني - الازدواجية التعليمية.

منذ نشأت المدرسة القرآنية والمجتمع الجنوبي لا يعرف عنها بديلاً ولا لها نظيراً. وحافظت على دورها كمصدر وحيد للتعليم، ومع ترسخ دعائم الدولة الحديثة، وفي ضوء السياسات التي تبنتها الدولة الجزائرية، فإن قوانين الجمهورية قضت بإلزامية التعليم القاعدي (الطور الابتدائي والمتوسط) ومجانيته. ومن ثم صار التلميذ موزعاً بين مدرستين بنمطين للتعليم: المدرسة النظامية والمدرسة القرآنية.

الأولى: تُدار حكومياً والالتحاق بها إلزامي لكل طفل بلغ سن التمدرس (6 سنوات)، وتفتح مقرراتها على مختلف العلوم، وتُطبق فيها المناهج والنظريات التعليمية الحديثة.

الثانية: حافظت على خصائصها الشكلية والموضوعية.

خصائص التعليم القرآني في الطور الحديث:

1- **وفرة في الأعداد:** شهدت المرحلة الحديثة طفرة كبيرة في أعداد مدارس التعليم القرآني وسجلت أعداداً غير مسبوقة، مستفيدة من الزيادة السريعة في مجموع السكان. وباتت الولاية ادرار في ذلك تحاكي حالات نادرة احتفظ بها التاريخ الإسلامي، يقول الدكتور مصطفى السباعي واصفاً ما بلغته الكتاتيب: (وكان الكُتَّاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلاثمائة كُتَّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية. وكان من الاتساع أحياناً بحيث يضم الكُتَّاب الواحد مئات وآلافاً من الطلاب. ومما يذكر في تاريخ أبي القاسم البلخي أنه كان له كُتَّاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ)²⁴.

فمجموع المدارس القرآنية حسب آخر الإحصاءات بلغ 624 مدرسة، وفي الفترة ما بين 1980 و1990 زاد تلاميذ الشيخ محمد بن لكبير في مدرسته عن 1500 تلميذ. والجدول²⁵ الموالي يكشف عن مدى النمو في مجموع المدارس ومجموع تلاميذها ما بين سنتي 2010 و2015.

المجموع العام للطلبة		طلبة موسميون		طلبة دائمون		عدد المدارس		السنوات المدارس
2015	2010	2015	2010	2015	2010	2015	2010	
8425	6124	5579	3070	2846	3054	28	25	مدارس داخلية
57839	93102	-	23074	-	70028	596	544	مدارس خارجية
66264	99226	-	-	-	-	624	569	المجموع

هذه الأرقام تحمل أكثر من دلالة، أوضحها أن شريحة المنتسبين للتعليم القرآني بصنفيها الدائمين والمؤقتين، تقترب من رُبع مجموع السكان. إذا أخذنا منها 6124

تلميذا المنتمين للمدارس الداخلية سنة 2010، تفيدنا إحصائيات تلك المدارس²⁶ أن عدد حفظتها خلال ثلاث سنوات وصل 435 حافظاً، بنسبة تفوق 7٪.

2- **تضخم النشاط الموسمي:** ما ميز نشاط التعليم القرآني في ولاية ادرار أنه نشاط تعليمي دائم على مدار السنة، غير أنه ومنذ أن بات ذلك النشاط مزحوماً بنشاط المدارس الرسمية تأقلمت المدارس القرآنية مع هذا التحول، وتجلى هذا التكيف -من جهة- في زيادة أعداد المدارس الداخلية التي توفر التعليم القرآني للطلبة الدائمين، الذين آثروا القرآن وعلومه على العلوم التي توفرها المدرسة النظامية، أو الطلبة الذين توقفت أو انتهت مسيرتهم التعليمية. ومن جهة أخرى في تهيؤ المدارس لاستقبال الأعداد الرهيبية في مواسم العطل المدرسية، والجدول الإحصائي²⁷ الآتي يقدم عينة من ثلاث مدارس داخلية، يكشف كيف يقفز مجموع التلاميذ سنة 2010 بنسبة تتراوح بين 100٪ و200٪ في فصل الصيف.

الدائرة الإدارية	عدد المدارس الداخلية	الطلبة الدائمون	الطلبة المؤقتون	المجموع
دائرة ادرار	6	686	727	1413
دائرة رقان	3	339	373	712
دائرة تينركوك	1	30	90	120

وتجدر الإشارة إلى أن صفة الموسمية إنما هي بالنسبة للغالبية من التلاميذ، أما المعلمون فيظل التعليم القرآني نشاطهم السنوي، بل إن التعليمات الداخلية لمديريات الشؤون الدينية تمنعهم من الاستفادة من عطلةهم السنوية في موسم الذروة (الصيف)، لضمان التأطير الكافي.

3- انفكاك ارتباط المدرسة بالمسجد.

لقد شهدنا كيف أن المدرسة القرآنية كانت غالباً متصلة بالمسجد حساً، فإما أن يُدرّس داخله أو في غرف ملحقة به، وقد كان لهذا الاتصال ما يُبرره، من كون معلم القرآن هو إمام الصلاة، إلى استحضار نشأة النواة الأولى حيث (تكونت المدارس في المساجد اقتداءً بالمدرسة الأولى المسجد النبوي الذي كان يث فيه رسول الله ﷺ المعارف بشتى أنواعها)²⁸.

إن هذا الارتباط لم يعد ارتباطاً عرفياً بعد أن كرسه القوانين والتشريعات الجزائرية المنظمة للشؤون الإسلامية، حيث نصت المادة السادسة من المرسوم التنفيذي 13-377 المؤرخ في 2013/11/09 المتضمن القانون الأساسي للمسجد على: (يضطلع المسجد بوظيفة تربوية تعليمية تتمثل في:

- تنظيم حلقات تلاوة القرآن الكريم وتحفيظه، وتعليم تجويده وتفسيره،
- تنظيم مسابقات في حفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، وفي حفظ الحديث الشريف وشرحه)²⁹.

إن فك هذا الارتباط الذي نشأت عليه أجيال لم يكن بالأمر الهين. ففي التاريخ يُذكر أنه (امتنع أبو إسحاق الشيرازي من التدريس في المدارس النظامية³⁰ لما رآه من مخالفة للمعهد من التدريس في المساجد، ويظهر موقفه من المدرسة النظامية أنه كان على تشكك من أمر المدارس ثم بدت له صلاحيتها فدّرّس بها بعد الامتناع)³¹.

صار فك الارتباط في الجنوب حتماً بفعل الزيادة المطردة في عدد المدارس، بوتيرة أسرع من زيادة عدد المساجد، نتيجة نسبة النمو الديموغرافي في مجتمع الواحات.

المدرسة القرآنية بأدارار: التحديات والمخارج.

بعد عصر ذهبي للتعليم القرآني في ولاية أدرار، لا تزال الولاية وغيرها تعيش وتنعم بشماره، أطل عصر بدأت ملامح التراجع فيه بارزة للعيان. على مستوى المدرسين والمتمدرسين³²، وأبرز التحديات التي تواجه المدرسة القرآنية وتأثر سلباً على مردودها، وتحكم في صيرورتها، وربما ترهن مستقبلها نلخصها في:

أ- الشهادة والتوظيف: باتت فرص الشغل التي يُتيحها التعليم أو التكوين تتحكم في الإقبال عليه أو النفور منه، فتشترك عادة إرادة الأولياء ورغبات الأبناء في التوجه نحو التخصصات العلمية التي تفتح الفرص الأكبر، وهذا ملحوظ في اختيارات تلاميذ الطور الثانوي، وطلاب الجامعات، وكذا منتسبي معاهد التكوين المهني. ولأن مدارس التعليم القرآني لا تحظى بالصفة الرسمية، فإن المنتسب إليها - حتى بعد حفظ القرآن كاملاً واستظهاره- لا يُتوج مساره التعليمي بشهادة رسمية معترف بها في سوق الشغل.

هذا الواقع لم يعد مشجعاً على المواظبة على التعليم الديني بشكل عام، لأن جيشاً من الخريجين بات مهدداً بالبطالة، وهي مسألة تَورق القائمين على التعليم القرآني، ورغم أن النقاش لا يزال يدور في الدوائر الحكومية بين الفينة والأخرى حول قبول شهادات المدارس القرآنية، وتصنيفها بحيث يُسمح بالاستفادة من معارف حامليها في الوظائف القريبة من محتوى الشهادة، وأقرها مثلاً قطاع التربية والتعليم. وكذا معادلة تلك الشهادة حتى يتأتى لأهلها إتمام المسار التعليمي. هذا المهم نقله الشيخ أحمد قصبية (ت 1994م) للحكومة في وقت مبكر عن طريق بعض أعضائها فيما يروي به بقوله: (كنت اقترحت على الأستاذ توفيق المدني -رحمه الله- أن يسعى لدى الحكومة لإدماج معلمي القرآن الكريم في سلك معلمي وزارة التربية والتعليم، لتعليم جميع أبنائنا كتأجيم المقدس، وتعليمهم مخارج الحروف التي تجعل منهم فصحاء يحسنون النطق بلسانهم العربي المبين)³³.

وقد استجابت الحكومة لهذه المطالب بعد تعاضم نفوذ شيوخ الإقراء الجنوبيين، فقبلت إدماج خريجي المدارس القرآنية في التعليم الجامعي بالمعاهد العليا للعلوم الشرعية- ولو بشكل مؤقت- في الفترة بين 1986 و1996.

ب- عزوف الشباب ورهان التحديث: كان من الممكن ألا تشكل المدرسة القرآنية في الصحراء الجزائرية ظاهرة، وما أهلها للبروز والتفوق هو أنها لا تزال تقاوم حالة عزوف الشباب على التعليم التقليدي، لاسيما حين لا يُشفع بمؤهلات تسمح بالتشغيل المباشر. ولا يُنكر دور الوسط الجغرافي - الحار والقاحل- الذي لا يوفر كثيراً من مناخات استقطاب الشباب، والمتاحة في جهات كثيرة من الدولة، خاصة في المناطق الساحلية، في حصر اهتماماتهم، ثم إن طبيعة التنشئة الاجتماعية في المجتمعات الصحراوية لا تزال تحتفظ بفاعليتها في ميولات الشباب. وهو ما جعل من هذا الوسط الوجهة المفضلة للشباب الراغب في حفظ القرآن من كل جهات الجمهورية.

إن بقاء الوضع على ما هو عليه يبدو بعيداً، في ظل التحولات الاجتماعية والثقافية والتقنية، التي مست المجتمع العربي برمته. ويبدو أن الآخذين بناصية التعليم القرآني في ولاية ادرار يستشرفون أثر هذا التحول على نشاطهم، يُعبر عن ذلك مسيرة التحديث في الوسائل والمناهج، وهذا ما لاحظته لجنة التربية والتكوين والشبيبة³⁴ في معابنتها للمدارس القرآنية في عموم الولاية سنة 2010، وأثبتته في تقريرها، حيث جاء فيه:

(- ظهور عدد من المدارس القرآنية النموذجية الداخلية والخارجية، من حيث المرافق وكذا الوسائل والبرامج.

- بروز جيل من الممارسين للتعليم القرآني من حملة الشهادات الجامعية العليا، ليسانس ماجستير ودكتوراه)³⁵.

اتجاه مدرسة التحفيظ بين أنصاره ومنتقديه:

لا شك أن المنجز الأكبر لمدارس التعليم القرآني في الجنوب الجزائري هو تحفيظ القرآن للأجيال اللاحقة، ضمناً لتواتر النقل. أما الاشتغال بفقہ القرآن وعلومه فلا يحظى بذات القدر من الاهتمام. ومثل هذا التوجه منتقد عند كثير من أهل العلم، ومن منتقديه الدكتور القرضاوي بقوله: (الخطأ الذي وقع فيه المسلمون هو اهتمامهم بالحفظ أكثر من الفهم، وإعطاؤه أكثر من حقه وقدره. ولهذا نجد مبالغة في تكريم حفظ القرآن الكريم، على ما لذلك من فضل، حتى أن مسابقات تُعقد في عدد من الأقطار، تُقدم فيها الجوائز القيمة، ولكن لم يُرصد مثل هذه الجوائز ولا نصفها ولا ربعها للنابعين في العلوم الشرعية المختلفة من التفسير والحديث والفقہ وأصوله والعقيدة والدعوة، مع أن حاجة الأمة إلى هؤلاء أكثر، ونفعهم أعظم وأغزر)³⁶. وعاد مرة أخرى لمثل هذا النقد في كتابه كيف نتعامل مع القرآن³⁷.

مع الإقرار بصوابية ما ذهب إليه فضيلته، من ضرورة الموازنة بين المبني والمعنى، وبين العلم والعمل، فإنه يشفع لهذه المدرسة في نظر أصحابها اعتبارات أربعة:

أولها: أن القرآن الكريم مطلوب لذاته، وسياقنا لا يتسع لسرد النصوص والآثار الواردة في ذلك، وأن بعض أثره التربوي تلقائي في نفس قارئه وحافظه، وقد باشرت بعض الدول³⁸ تجربة إصلاح المساجين بتحفيظهم القرآن الكريم. وهو مشروع جدير بالاهتمام.

ثانيها: معلوم فقهاً أن حفظ القرآن وتحفيظه من فروض الكفاية، غير أن القائمين على التعليم القرآني بمدارس ادرار، يُساورهم شعور بأنه متعين عليهم، في ضوء ما يرون من التراجع الواضح للاهتمام به في جهات أخرى من الدولة، وهم يستصحبون هذا الإحساس من فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ثالثها: الموقع الجغرافي لولاية ادرار على حدود الجزائر من دول إفريقيا³⁹ سهل توافد الأفارقة على مدارس التعليم، وما يُمثله ذلك من أثر على الدعوة الإسلامية في إفريقيا.

رابعها: أن تحفيظ القرآن في المجتمع الجزائري هو واحد من الأدوات التي تقف في وجه مشاريع التغريب والتبعية الثقافية لفرنسا، التي تستهدف - في المقام الأول - عروبة المجتمع وشخصيته الإسلامية، ومن هذا المنطلق تنبع دعوة الشيخ محمد باي رحمه الله لدعم مؤسسات التحفيظ بقوله: (إننا لنرى في هاته المؤسسات وفي تشجيعها وتنظيمها وتمويلها الضمان الأساسي للمحافظة على المقومات الدينية والمبادئ الإسلامية والتربوية والأخلاقية، والحفظ على لغتنا الرسمية اللغة العربية لغة القرآن ولغة سيد الأنام ﷺ).⁴⁰

الخاتمة:

إن التعليم القرآني جهد مقدس يكفيه شرفاً أن شهد النبي ﷺ لصاحبه بالخيرية، ﴿خيركم من تعلم القرآن وعلمه﴾⁴¹، لقد كان ولا يزال التحفيظ القرآني نمطاً من أنماط التكوين، بل مظهراً من مظاهر التحضر في المجتمعات العربية والمسلمة، وقد أسهم هذا التعليم في تاريخ الجزائر الحديث إبان فترة الاحتلال الفرنسي بصورة مباشرة في الحفاظ على عناصر الشخصية الوطنية (اللغة والمعتقد).

إن ارتباط ولاية ادرار بالتعليم القرآني يرجع إلى قرون خلت، فقد اجتهدت الأجيال المتعاقبة على توارث هذا اللون من التعليم في مدنها وأريافها، حتى صار أحد مفاخرها الكبرى، وبات معلماً بارزاً من المعالم الثقافية للإقليم. وأهم ما يمكن إثباته من نتائج في الختام:

أ- إن استمرارية المدرسة القرآنية في الجنوب الجزائري في رسالتها التعليمية والتربوية، في ظل المزاحمة الشديدة من المدارس النظامية، وفي ظل ما تفرضه العولمة الثقافية على

المجتمعات الشرقية، هي واحدة من بوارق الأمل، التي ترسم تمسك الأمة وشبابها بمصادر عزتها.

ب- إن ما حققته وتحققه المدرسة التقليدية من نتائج، لا يشفع لها في الجمود، ولا يعفيها من الاستعانة والاستفادة مما توصلت إليه البشرية من ابتكارات وما اهتمت إليه من نظريات.

ج- إن رسالة المدرسة القرآنية، ليست رسالة خاصة للقيمين عليها، بل هي الرسالة الحضارية للأمة. ولا يتأتى للمدرسة أيًا كان نمطها وحيثما كان وجودها النجاح، إن لم تجد الحاضنة القوية، والدعم المستمر من المجتمع بكل مكوناته.

د- إن اهتمام المدارس القرآنية الشديد بالتحفيظ - على أهميته - يجب أن يُشفع بالعناية بعلوم القرآن وفقهه، لئلا يتحول جهدها المضني إلى مجرد "نسخ"، يُنتج حفظة لا فقه لهم بما يحفظون.

هوامش البحث ومصادره ومراجعته

- 1 - التمنيطي، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق. درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بمكتبة آل عبد الكبير، المطارفة، الجزائر)، ص 1.
- 2 - ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، (السعودية: بيت الأفكار الدولية)، ص 1583.
- 3 - ابن بابا حيدة، محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم. القول البسيط في أخبار تمنيط، تحقيق: فرج محمود فرج، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007)، 205.
- 4 - انظر: التنبكتي، أحمد بابا. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1989م)، 637.

- 5 - جرادي، محمد. الرحلة العلمية ودورها في تشكل المرجعيات الفقهية في الجنوب الجزائري منطقة توات أمودجاً، (بحث في ملتقى عقبة بن نافع الفهري، بسكرة، الجزائر، 2013)، 8.
- 6 - انظر: مسدالي، فاطمة. مكانة الكتابات القرآنية في التعليم الأولي بالبادية المغربية، (المغرب: مقال بمجلة البحث العلمي، العدد 51، يناير 2009)، ص 60-61.
- 7 - ينظر: بلعالم ، محمد باي. الرحلة العلية إلى منطقة توات، (الجزائر: دار هومة، ط1، 2005م)، 323/1.
- 8 - ينظر: جرادي ، محمد. نوازل الرجلوي دراسة وتحقيق، (أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 2011)، 71.
- 9 - السباعي، مصطفى. من روائع حضارتنا، (الجزائر: دار الصديقية، ط1، 1400هـ/1980)، ص183 و184.
- 10 لم تكن حقول النفط والغاز في الصحراء قد اكتشفت.
- 11 - هذا لا يعني ترحيب المختل الفرنسي بالنشاط التعليمي في الجنوب، فالشيخ محمد بلكبير (1911- 2000/09/15م) بدأ مشواره التعليمي بافتتاح مدرسته في بلدة تميمون - شمال الولاية - واضطرته مضايقة المختل لتوقيف نشاطه التعليمي. ثم تحويله إلى مدينة ادرار وافتتاح مدرسته بها والتي ذاع صيتها لاحقاً.
- 12 - أحصى الشيخ محمد باي بلعالم ثلاثة عشر مدرسة تفرعت من مدرسة واحدة هي مدرسة الشيخ محمد بن لكبير والتي كان مقرها مدينة ادرار. انظر كتابه الرحلة العلية، 352/1.
- 13 - لا ينطبق هذا على القدر الضروري من الفقه كأحكام الطهارة والصلاة والصيام التي كانت تتاح حتى للمبتدئين.
- 14 - ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، (بيروت: دار القلم، ط6، 1409هـ، 1989م) / 538.
- 15 - محمد باي: الرحلة العلية إلى منطقة توات، مرجع سابق، 324 / 1.
- 16 - لأن المنطقة صحراوية شديدة الحر، فإن العمل الذي كان جارياً في كل المساجد هو الإبراد بصلاة الظهر، بتأخيره إلى الثلث الأخير من وقته الشرعي.

- 17 - ينظر: حوتية ، محمد الصالح. توات والأزواد، (الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007)،
247/1.
- 18 - لكل تلميذ لوحه الخاص، وعليه تتفاوت الألواح في حجمها، حسب سن صاحبها.
- 19 - ذهب مالكية المغرب إلى تجويز قراءة القرآن على هيئة الاجتماع، وممن رجح الاستحباب الإمام النووي الشافعي (ت676هـ) في التبيان (ص98) حيث قال: (اعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة). وما استدلل به المجيزون حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده﴾، رواه مسلم كتاب الذكر والدعاء. وتجدد الإشارة إلى أن الاجتماع على القراءة في التعليم خارج محل النزاع.
- 20 - يُنظر: محمد باي، الرحلة العلية، مرجع سابق، 324/1.
- 21 - الزراعة هي النشاط الاقتصادي الغالب لدى سكان المناطق الجنوبية وكانت خلال تلك العهد تمارس بشكل تقليدي.
- 22 - النووي، يحي بن شرف. التبيان في آداب حملة القرآن، (الجزائر: دار البلاغ للنشر والتوزيع، 2001)، 60.
- 23 - قصيبة، أحمد بن أبي زيد. الإمام الناجح، (الجزائر: مطبعة بن سالم-الاغواط، 2010)،
249.
- 24 - السباعي، مصطفى. من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص183 و184.
- 25 - تقارير مديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية أدرار لسنوات 2010 و2015. (غير منشورة)
- 26 - مديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية أدرار، تقرير سنة 2010، ص2.
- 27 - ينظر: مديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية أدرار. تقرير 2010، ص2.
- 28 - النيفر، محمد الشاذلي. (الجزائر: مقال ضمن أعمال ملتقى الفكر الإسلامي 12 باتنة، 1978). دور الحضارة الإسلامية في نشأة الجامعة وتطورها، (الجزائر: كتاب الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية)، ص23.
- 29 - الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، العدد 58، مؤرخة 2013/11/18، ص5.

- 30 - المدرسة النظامية هي التي أنشأها نظام الملك ببغداد سنة 475هـ.
- 31 - النيفر، محمد الشاذلي. مرجع سابق، 31.
- 32 - ليس التراجع على المستوى الكمي.
- 33 - قصيبة، أحمد. الإمام الناجح. مرجع سابق، 250.
- 34 - لجنة منبثقة عن المجلس المحلي المنتخب والمعروف بالمجلس الشعبي الولائي.
- 35 - لجنة التربية والتكوين والشبيبة، بالمجلس الشعبي الولائي لولاية ادرار. تقرير عن التعليم القرآني سنة 2010. (غير منشور)
- 36 - القرضاوي، يوسف. في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، (مصر: مكتبة وهبة، ط1، 1415هـ/1995م)، 68.
- 37 - القرضاوي، يوسف. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، (مصر: دار الشروق، ط7، 2007)، 149.
- 38 - من الدول التي تشجع المساجين وتكافؤهم على حفظ القرآن المملكة الأردنية والجزائر.
- 39 - دولتي مالي والنيجر.
- 40 - بلعالم، محمد باي. الرحلة العلية، مرجع سابق، 313/1.
- 41 - أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث 5027.